﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ [النِّساء: 45 - 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكـــر أحـــوال الـــكُـــفَّـــارِ وعقُوباتهم بعد ذكر العبادات؛ تَـــرْغـيـبًـــا في الاتِّباع، وتَرْهيبًا مـــن المُـخـالـفـة والابتداع

لَمَّا ذكَر الله تعالى أنواعًا كثيرةً من التَّكاليفِ والأحكامِ الشَّرعيَّةِ؛ انتقَل إلى ذِكْر أحوال أعداءِ الدِّين، وأقاصيص المتقدِّمين؛ ليكون ذلك مُرغِّبًا في تَقَبُّل ما مَرَّ من التَّكاليف لِيُسْرِهِ ولرجاء الثَّواب، مُرَهِّبًا من تَركِها خَوْفًا من العقاب، ولِيَصيرَ الكلام حُلْوًا رائقًا بتفصيل نَظْمِهِ تارة بأحكام، وتارة بأقاصيصَ عِظام، فالانتقالُ من نوعٍ من العلوم إلى نوع آخر يُنشِّطُ الخاطرَ، ويدفَع ما يُكدِّره، ويقوِّي القريحةَ[1]، وتلك عادة القرآن الحكيم.

ولَمَّا وَفَّرت هذه الآيات الدَّواعي على تَعْيينِ هؤلاء الَّذين يُريدون الإضلال، قال بيانًا بعد الاعتراض بما بَيْنَ المُبَيِّنِ والمُبَيَّنِ من الجُمَلِ لمزيدِ الاهتمام به: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾[2]، فهي بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيّٗا﴾: الوليُّ النَّاصر الَّذي يَلي أُمورَ أوليائِه بالحياطةِ لهم والحراسة، وأصْلُ (وَلِيَ): يدلُّ على القُرْبِ والدُّنوِّ، سَواء مِن حيث:

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/91، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/289.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/292.
(3) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/660.

المكانُ، أم النِّسبةُ، أم الدِّين، أم الصَّداقة، أم النُّصرة، أم الاعتقاد، وحَقيقتُهُ تَوَلِّي الأَمْر، وكُلُّ مَن وَلِيَ أَمْرَ آخَرَ؛ فهو وَلِيُّه[1]، وهذه المعاني محتملة في لفظة ﴿وَلِيًّا﴾ الواردة في الآية.

2) ﴿هَادُواْ﴾: الهَوْدُ: التَّوْبةُ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾، أي: تُبْنا إليك، والهُودُ: اليهود، هادوا يَهُودون هَوْدًا، وأصلُ الهَوْدِ: إِرْوَادٌ وَسُكُونٌ، يَقُولُونَ: التَّهْوِيدُ: المَشْيُ الرُّوَيْدُ، وسُمِّيتِ اليهود اشتقاقًا من هادوا، أي: تابوا، ورجعوا، أخذًا من قول موسى على نبيِّنا وعليه الصَّلاة والسَّلام في دعائه الله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: 156]. كأنّهم رجعوا عن شيء إلى شيء، وكان اسم مَدْحٍ، ثُمَّ بعد نَسْخِ شريعتهم أصبح لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح، كما أنَّ النَّصارى في الأصل من قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 52]، ثُمَّ صار لازمًا لهم بَعْدَ نَسْخِ شريعتهم، ويُقالُ: نُسبوا إلى يهوذا، وهو أَكْبَرُ وَلَدِ يعقوبَ، فَأَدْخلوا الأَلف واللَّامَ فِيهَا على إرادَةِ النَّسَب، وَتُسُوهِل في الإعجام بالإهمال؛ لِمَا أنَّ الدَّال والذَّال يتعاوران في الكلام، فإذا بالدَّال موضع الذَّال، ومعنى هادوا هُنا: تَهَوَّدُوا، أَي: صَارُوا يَهودًا[2].

3) ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: التَّحريفُ: إمالة الشَّيءِ عن جهته وصَرْفُهُ، ومنه تحريف الكَلِم، وتَحَرَّفَ فُلانٌ عن فلان، وانحَرَف، واحرَوْرَفَ: واحدٌ، أَيْ: مالَ، وأَصْلُ الحرف: العُدُولُ والانْحِرَافُ عَنِ الشَّيْءِ، والتَّحريفُ في القرآن: تَغْييرُ الكَلِمَةِ عن معناها، ومعنى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾: يُقَلِّبونَهُ، ويُغَيِّرونَهُ[3]. ويميلونه عن مواضعه الَّتي وضعه الله فيها بإزالته عنها، وإثبات غيره فيها، أو يؤوِّلونه على ما يشتهون، فيميلونه عمَّا أنزل الله فيه[4].

4) ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: أي: لا سَمِعْتَ، أَوْ مَدْعوًّا عليك بِصَمَمٍ أو مَوْتٍ، أو غيرَ مُجابٍ إلى ما تَدْعو إِلَيْه أو كلامٍ ترْضاهُ[5].

(1) الجَوْهَريّ، الصِّحاح: (ولي)، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (ولي)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 89، وابن جرير، جامع البيان: 7/101.

(2) الخليل، العَينْ، وابْنُ سيدَه، المُحكَم، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (هود)، وغريب القرآن لابن قُتَيْبَة، ص: 173، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرآن، ص: 490.

(3) الخليل، العَينْ، وابْنُ سيدَه، المُحكَم، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (حرف)، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرآن، ص: 531.

(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/77.

(5) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (سمع)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرآن، ص: 128، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 65، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 883.

5) ﴿وَرَٰعِنَا﴾: من رعيتُ الرَّجُلَ؛ إذا تَأَمَّلْتُهُ، وتعرَّفْتُ أحواله، يُقال: أَرْعَيْتُه سَمْعِي، أَي: أَصْغَيْتُ إِلَيْهِ؛ وراعاه يُراعيه؛ إذا تَعَهَّدَهُ؛ وكان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ: رَاعِنَا، وأَرْعِنا سَمْعَكَ، وكان اليهود يقولون: رَاعِنَا، وهِيَ - بسوء نيَّتهم وفَسَاد طويَّتهم - سَبٌّ لرسول الله ﷺ بالرُّعُونَة؛ وأَصْلُ رَعَنَ بهذا المعنى: يَدُلُّ عَلَى هَوَجٍ وَاضْطِرَابٍ، يُقال: رَعَنَ الرَّجل يَرْعَنُ رَعْنًا؛ فهو أَرْعَنُ، أي: أهوجُ، والمرأة رَعْناءُ، والأَرْعَنُ: الأهوج في مَنْطِقه المُسْتَرْخي، فالمعنى هُنا: يُحرِّفون، ﴿وَرَٰعِنَا﴾: من طريق المُراعاة والاستمهال إلى السَّبِّ بالرُّعونَة[1].

6) ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: تَحْريفًا بالكذب، واستهزاءً ومُحاكاةً؛ وأَصْلُ لَوِيَ: يَدُلُّ عَلَى إِمَالَةٍ لِلشَّيْءِ، يُقالُ: لَوَيْتُ الحَبْلَ: فَتَلْتُهُ، ولَوى الرَّجُلُ رأسه، وألْوَى برأسه: أَمال، وأَعْرَضَ، ولَوى لِسانَهُ بكذا: كِنايَةٌ عن الكذب وتخرُّصِ الحديث، أي: يُحرِّفونه، ويُغَيِّرونَ أحكامه[2].

7) ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾: قَدْحًا فيه، يُقال: طَعَنَ فُلانٌ على فلان في أمره طَعْنًا؛ إذا أَدْخَلَ عليه العَيْبَ، وذكرَه بقبيحٍ، وأَصْلُ الطَّعْنِ: النَّخْسُ في الشَّيْءِ بِمَا يُنْفِذُهُ، فالطَّعْنُ: الضَّرْبُ بالرُّمْحِ وبالقَرْنِ وما يجري مجْراهُما، وتطاعنوا، واطَّعنوا، واسْتُعيرَ للوَقيعَةِ، ومعنى طَعْنهم في الدِّين: أنَّهم عابوه، وثَلَبُوه قَدْحًا بالاستهزاء والسُّخْرِيَةِ[3].

8) ﴿وَٱنظُرْنَا﴾: أي: أَفْهِمْنا، أَوِ انْظُرْ إِلَيْنا، أو انتظرنا نَفْهَمْ ما تعلَّمنا، وَنَظَرهُ، وانْتَظَره، وتَنَظَّرَه: تَأَنَّى عَلَيْهِ، وأَصْلُ النَّظَرِ: تَأَمُّلُ الشَّيْءِ وَمُعَايَنَتُهُ، والمَعنى هُنا: قالوا: انْتَظِرنا، مكان راعنا، تقول: نظرتك، وانتظرتُك: بمعنى واحدٍ[4].

9) ﴿وَأَقْوَمَ﴾: أَيْ: أَخْلَصَ، وأَسَدَّ، يُقال: فلانٌ أقوَمُ كلَامًا مِن فلانٍ، أَي: أعدَلُ كلَامًا، وأقامَ الشَّيء، أيْ: أَدامَهُ، وأصل قَوَمَ: مُراعاةُ الشَّيءِ وحِفظُه، وكذلك الانتصاب والعزم[5].

---

(1) ابْنُ سيدَه، المُحكَم، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (رعن)، وابن قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 60.

(2) الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (لوى)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 139، والكَفَويّ، الكُلِّيّات، ص: 801.

(3) الخليل، العَينْ، وابْنُ دُرَيْد، جَمْهَرَةُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (طعن)، وأبو السّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/184.

(4) ابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (نظر)، والغَزْنَويّ، باهِرُ البُرْهان: 1/120، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 128.

(5) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (قوم)، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 423، والكَفَويّ، الكُلِّيّات، ص: 160.

10) ﴿لَّعَنَهُمُ﴾: جَمَعَ عليهم كلَّ معاني اللَّعن؛ فَذَمَّهم، وطَرَدَهُمْ، وأَبْعَدَهُمْ، ولَعَنه يَلْعَنه لَعْنًا: أَبْعَدَهُ، وأَصْلُ اللَّعْنِ: يَدُلُّ عَلَى إِبْعَادٍ وَإِطْرَادٍ على سبيل السَّخَطِ، يُقالُ: الرَّجُلُ الطَّرِيدُ لَعِينٌ، واللَّعْنُ: الإِبْعادُ والطَّرْد مِنَ الخَيْرِ، والمعنى هُنا: أَبْعَدَهُمْ من رَحْمَتِهِ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المُستعانُ على مَكْرِ الأعداء هو الله وحده، فهو العالم بعداوتهم، والنَّاصر لأوليائه

مِنَ اليَهود قَوْمٌ سوءٍ يغيِّرون الكلام الَّذي أنزله الله، فيُؤوِّلونه على غير ما أنزل الله لَفْظًا بالتَّصْحيف، ومعنًى بالتَّزييف، وكلاهما تحريف، ويقولون للرَّسول ﷺ حين يأمرهم بِأَمْرٍ: سمعنا قَوْلَكَ، وعصينا أمرك، ويقولون مُسْتَهْزئينَ: اسمع ما نقول، لا سَمِعْتَ؛ ويُوهمون بقولهم: ﴿وَرَاعِنَا﴾ أنَّهم يُريدون: راعنا سَمْعَكَ، وإنَّما يريدون الرُّعونة حَسَبَ لُغتهم، يَلْوون بها ألسنتهم، يُريدون الدُّعاء عليه ﷺ، ويقصدون القدح في الدِّين، ولو أنَّهم قالوا: سمعنا قولك، وأطعنا أمرك، بَدَلًا من قولهم: سَمِعْنا قولك، وعصينا أَمْرَكَ، وقالوا: اسمع، بدل قولهم: اسْمَعْ، لا سَمِعْتَ، وقالوا: أَوْلِنا من سماحتك الطَّيِّبة لكَ نَظرًا وأَنَاة نَفْهَمْ عنك ما تَقُول، بدل قولهم: راعنا؛ لكان ذلك خيرًا لهم مِمَّا قالوه أوَّلًا، وأعدل منه؛ لِمَا فيه من حسن الأَدَبِ اللَّائِقِ بجناب النَّبيِّ ﷺ ولكنَّ الله ذَمَّهُم، وطردهم من رحمته، بسبب كُفْرِهِمْ أبدًا، فالله ﷻ أَعْلَمُ منكم - أيُّها المؤمنون - بِعَداوَةِ هؤلاء اليهود لكم، فأخبركم بهم، وبيَّن لكم عداوتهم، ووَلايَةُ الله تَحْميكم، وتَكْلَؤُكُمْ، وتَكْفيكم، فلا تطلبوا وَلايَةً غَيْرَ وَلايَتِهِ، وتَكْفيكم نُصْرَتُهُ، فلا تستعينوا بسواه[2].

(1) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب: (لعن).
(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 116، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 86.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الاعْتِراضِ بَيْنَ ذِكْرِ البَيانِ والمُبَيَّنِ

إنّ اشتراء غيرنا الضَّلالة لنفسه هو أحد جناحيّ عداوته لنا، وهو كإرادته لنا التخبُّط في مهامِهِ الحيرة، والتقلُّب في ظلمات الضَّلالة من وثنيَّة وأهواء، على حدٍّ سواء، ذلك أنَّنا أصحاب قِيَمٍ وهدايات نابعة من دينٍ حقٍّ، نعيش لأجلها، ونموت في سبيلها، إرادة أن يفيء إليها، وأن ينعم بها – مثلنا – الآخرون وهكذا، فوجود الأمَّة المسلمة على الأرض ضرورة حياتيَّة وضرورة إنسانيَّة، وهو وجود أغلى من الحياة ذاتها، إن خلت منهم، فإنَّما الأغلى من الحياة للَّذي لا تطيب الحياة إلّا به، كما أنَّ شرًّا من الموت، كلُّ ما يُتَمَنَّى الموت من أجله.

تقرير ما سَبَقَ من إرادة اليهود إضلال المؤمنين مُبالَغة في التَّحذير من مَكْرِهِمْ والتَّنْفيرِ منهم

جُمْلَةُ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ مُعْتَرِضَةٌ، مُقَرِّرَةٌ لما سَبَقَ، وإِرَادَتهُمُ الضَّلَالَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ ناتجة عَنْ عَدَاوَةٍ وَحَسَدٍ وبغضاء[1]، فَقَدْ أخبر في الآيةِ السَّابقة أنَّ اليهود يَشْتَرُونَ الضَّلالة، وَيُرِيدُونَ أن يَضِلَّ المؤمنون السَّبيل، وجيء فيهما بالمُضارع: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ و﴿وَيُرِيدُونَ﴾ [النساء: 44]؛ للدَّلالةِ على الاستمرار التَّجدُّديِّ؛ فناسب أن يَجيءَ بهذه الجُمْلَةِ المعترضَةِ لِتَقْريرِ إرادَتِهِم المذكورة[2].

توجيه الإخبار بجملة الاعتراض:

أعلميّة الله تعالى محسومة، وفي الخبر تهديدٌ للمُشركين، وتحذيرٌ منهم

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ خَبَرٌ، في ضِمْنِهِ التَّحذيرُ منهم[3]، وإلَّا؛ فأَعْلميَّة الله تعالى مَعْلومَةٌ[4]، وفيه – أيضًا – تهديدٌ للمُشركين وتحذيرٌ لهم[5]؛ إذ اللهُ يَعلمُهم، ويعلمُ ما يَفعلون، مع التَّأكيد على الاكتفاء بوَلاية الله ﷻ ونُصْرَتِهِ وعدَمِ المُبالاة بهم[6]؛

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/72.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/182.
(3) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/61.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(5) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ): 1/364.
(6) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.

لذا توسَّطت هذه الجملة بين البَيَانِ والمُبَيَّن على سبيل الاعتراض[1]، مبالغةً في التَّحذير منهم، فَوَسَّطَ بَيْنَهُما ما وَسَّطَ لمزيد الاعتناء ببيان مَحَلِّ التَّشْنيعِ والتَّعْجيبِ والمُسارَعَةِ إلى تَنْفيرِ المؤمنين عنهم[2].

بلاغة التذييل بالجملتين الاعتراضيّتين

وقد عطفت على جملة الاعتراض الأولى - تتمَّة لها - جملتان اعتراضيَّتان هما: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، وهما خبرٌ بما لا يجوز ادَّعاؤه من حيث تعلُّقه بالمؤمنين، من غير توقيف من الموحِي سبحانه، أو من جهة السَّمعيَّات، من حيث إنَّه كلام عن الله ﷻ، ولا أحد أعلم بالله من الله سبحانه، فناسب أن يتوقَّف استقبال مثل هذه الإفادات على مجيئها وحْيًا منه، وعلى ذلك؛ فالمقصود من الخبر الفائدة، ومن حيث إنَّ أسبابه بأيدي المؤمنين، كما قال في الولاية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31]، وقال في النَّصر: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحجّ: 40]، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمَّد: 7]، جاز أن يدَّعى في الخبرين لازم الفائدة؛ لما أنَّ شواهد الفائدة وأماراتها قد امتلأ بها كيانهم، ووقرت في أنفسهم، وصدَّقتها أعمالهم، وكان إخبارهم به وحيًا لذَّة لهم ونِعْمة عليهم، وتحصَّل من هذا أنَّ الاعتراض بين قوليه: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: 44] بالآية السَّابقة أوَّلًا، و﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بالآية اللَّاحقة تاليًا، قد حصل بثلاث جمل: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، قال أبو حيَّان: إذا كان الفارسيُّ قد منع الاعتراض بجملتين؛ فما ظنُّك بثلاث؟ قال الحلبيُّ: وفيه نظر، فإنَّ الجُمل هنا متعاطفة، والعطف يصيِّر الشَّيئَيْن شيئًا واحدًا[3].

(1) الزَّمَخْشَريّ، تَفْسيرُ الكَشّاف: 1/516.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45، والقاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/139.
(3) السُّيوطيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/160.

من رحمة الله تَطْمينُ المؤمنينَ وحَثُّهم عَلى الثِّقَةِ به تَعالى والاكتفاءُ بوَلايَتِهِ ونُصْرَتِهِ

والجملتان تَذْييلٌ لِتَطْمين نُفُوس الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْإِخْبَارَ عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ ضَلَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُلْقِيَ الرَّوْعَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ كَانَ الْيَهُود المجاورون لِلْمُسْلِمِينَ ذَوِي عَدَدٍ وَعُدَدٍ، وَبِيَدِهِمُ الْأَمْوَالُ، ولهم مكْرٌ وخديعةٌ وحقْدٌ وتربُّص وكيْدٌ بالغ، وَهُمْ مَبْثُوثُونَ فِي الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا: مِنْ قَيْنُقَاعَ وَقُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَخَيْبَرَ، فَعَدَاوَتُهُمْ وَسُوءُ نَوَايَاهُمْ، لَيْسَا بِالْأَمْرِ الَّذِي يُسْتَهَانُ بِهِ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ مُنَاسِبًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: 44][1]. فَبَيَّن أنَّ الله تعالى وليُّ المُسلمين وناصرُهم، ومن كان الله وَلِيًّا له وناصرًا؛ لَمْ تَضُرَّه عداوة الخَلْق[2]، فاكْتَفوا بوَلايَتِهِ ونُصرته، ولا تُبالوا بهم، ولا تكونوا في ضَيْقٍ ممَّا يَمْكُرون[3]، ففيها اهتمامٌ بِحَثِّهِمْ على الثِّقَةِ بالله تعالى والاكتفاء بوَلايَتِهِ ونُصْرَتِهِ[4].

وفي هذا التَّذييل تَحذيرٌ للمؤمنين من مُوالاة الكافرين ومَحَبَّتِهِمْ، فَإذا كان الله وليًّا لكم - وهو أعلم منكم بالأعداء - فلَا تتخذوا عَدوّي وعدوّكم أَولياء.

دلالةُ تكرار جملة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

في تكْرارِ الاعْتراضِ دلالةٌ على الانتقام الشَّديد والتَّسْلية العامَّة

في الكلام تسليةٌ لِرَسُولِ الله ﷺ وَوَعْدٌ على نُصْرَتِهِ، وقهرٌ لأعدائه، فكان قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ اعتراضًا مُؤَكِّدًا لما سبق، وفي تَكْرير الاعتراض دلالة على الانتقام الشَّديد والتَّسْلية العامَّة[5]، فالتَّكرار في مثل هذا المقام يكون أَشَدَّ تأثيرًا في القلب وأكثرَ مُبَالَغَةً[6].

(1) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/72 - 73.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45، والقاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/139.
(5) السُّيوطيّ، حاشية السيوطي على البَيْضاويّ: 3/160.
(6) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93.

نكتة إظهار اسم الله الأعظم:

ذُكِرتْ جملةُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ للتَّبَرُّكِ، وللثِّقة بعلمه تعالى، وكفايته في الجمل الثَّلاث: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، و﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، فهو للاستئناس به، واستحضار حوله وقوَّته، وقوَّة غلبته، وشدَّة قهره، وللاستنصار به، ومطامنة النَّفس، وتوطين الثِّقة، وإلهام الدُّعاء، واستشعار الغنى والقوَّة، وأنَّه العزيز الحكيم، الفعَّال لما يريد، ولطمأنة المؤمنين ليأووا إليه، ويتوكَّلوا عليه، ويلتمسوا العزَّة منه، ولا يخشوا كيد عدوِّهم ومكره، ما داموا مكبِّرين الله على ما هداهم، مطيعين لرسالة نبيِّهم، وآخذين ما آتاهم.

التبرُّك بذكر الاسم الجليل، وتأكيدُ كفايته ﷻ في كلٍّ من الولايةِ والنُّصرةِ

وفي إظهارِ اسم الجَلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾ في مقامِ الإضمار في الجملتين - لا سيَّما في الثَّانية - تقويةٌ لاستقلالهما المُناسبِ للاعتراض، وتأكيدٌ لكفايته ﷻ في كلٍّ من الولايةِ والنُّصرةِ[1].

إنّ الله غنيٌّ عن الولاية، وعن النّصرة، ولن يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء

المغزى البلاغيُّ من زيادة حروف الجَرِّ:

الباءُ في فاعل ﴿وَكَفَىٰ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأكيد الاتِّصال الإسناديِّ بالاتِّصال الإضافيِّ[2]، أي: تأكيدُ النِّسبة الاتِّصاليَّة، وهي الْفَاعليَّة بالنِّسبة الإضافيَّة، فإنَّ المُضَاف إليه ما نُسِبَ إليْهِ المُضَافُ بواسطة حرف الجرِّ لفظًا أو تقديرًا[3]، فَجيءَ بالباء المزيدة تأكيدًا للنِّسبة بما يُفيد الاتِّصال، وهو الباءُ الإلصاقيَّةُ[4].

تأكيد الكفاية يناسبُ مقام الذّات الإلهيّة العليّة، وفيه تشويقٌ لما أُجْمِلَ، وتمكينٌ للمَعْنَى في الذِّهْنِ

وفي هذا التَّركيب زِيادةُ تشويقٍ إلى معرفة تفصيل ما أُجْمِلَ في نسبة الفعل إلى فاعله؛ لأنَّ الفعل يَطْلُبُ فاعلًا، ولا بُدَّ أن يصل إليه، فتأتي (الباء) بما فيها من معانٍ - منها الإلصاق - تُؤَكِّدُ اتِّصال

(1) أبو حَيَّان، البَحْرُ المُحيط: 3/665، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/182، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/527، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/76، والآلوسّي، روحُ المعاني: 4/45.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/180.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.

الأوَّل بالثَّاني؛ لِيَتَمَكَّنَ المَعْنَى في ذِهْنِ السَّامِعِ[1]. وثَمَّةَ فائدة أخرى، وهي أنَّ زيادة حرف الجرِّ تُبَيِّنُ معنى الأمر في لفظ الخَبَرِ، أي: اكْتَفُوا بالله، فالباء تَدُلُّ على المُرادِ من ذلك[2].

علّةُ إيثارِ فعل الكفاية:

الكفايةُ من الله تعالى ليست كالكفاية من غيره، فهي مؤَكَّدةٌ، متحقّقةٌ

الفِعْلُ ﴿وَكَفَىٰ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ مُسْتَعْمَلٌ في تَقْوِيَةِ اتِّصَافِ الفاعل بِوَصْفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّمْيِيزُ المَذْكُورُ بَعْدَهُ، أَيْ: إنَّ فَاعِلَ ﴿وَكَفَىٰ﴾ أَجْدَرُ مَنْ يَتَّصِفُ بِذَلِكَ الْوَصْفِ؛ وغَلَبَ في الْكَلَامِ إِدْخَالُ (بَاءٍ) عَلَى فَاعِلِ فِعْلِ ﴿وَكَفَىٰ﴾؛ لتأكيدِ اتِّصال الفعل بلفظ الجلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾، وتَقْوِيتِه[3]، فالباء مزيدة في فعل الكفاية لتوكيدها، وفيها إيذان بأنَّ الكفاية فيما زيدت فيه، متحقِّقة على النَّحو المقصود البالغ شأوًا بعيدًا منها[4].

بيانُ المتشابه اللفظي:

تعلّق السّياق بالربوبيّة، وبالشّكوى من الضّالين يستوجب ذكر الهداية

اكتفى هنا بذكر لفظ ﴿نَصِيرًا﴾، وزاد في [الفرقان: 31] لفظة ﴿هَادِيًا﴾، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: 31]. وبيان ذلك أنّ آية النساء بُدِئَتْ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾؛ ولأنّ السّياق متعلّقٌ بالألوهية، وكانت الولاية مقدَّمة للنصرة؛ ناسبه قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾. أما آية الفرقان فيسبقها قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: 30]؛ فلما كان السياق متعلقًا بالربوبية، وبشكوى الرّسول ﷺ ممّن ضلّوا عن سبيل الهداية؛ ناسبه تبشيره بكفاية ربه له هداية، ونصرة بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: 31].

(1) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/73.
(2) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/61، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(3) ابْنُ هِشام، مُغْني اللَّبيب: 1/109.وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/73.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93، وابْنُ عادِل، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتاب: 6/403 – 404.

فائدة بيان صفات اليَهودِ تَفْصيلًا بَعْدَ ذِكْرِ عَداوتِهِمْ إِجْمالًا:

في بيان الصّفات تَفْصيلٌ لفنون ضلالهم وتحذيرٌ مِنْ أَشَدِّ الأعداء عـلى المسلمين خَطَرًا وأعظمِهِمْ شَرًّا

جملة: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بَيَانٌ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقد تكونُ جملتها بَيَانًا لـ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾[1]، وكلتا المبيَّنتين متقدِّمة، فيسوَّغ الاحتمال، غير أنَّ الثَّانية منهما أحقُّ بالبيان وأوعى للغرض، وعلى كلا القولين؛ فإنَّه لمَّا كان ذِكْرُ الأَعْداءِ بِشَكْلٍ عامٍّ - في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المُشْتَمِلِ على الفريقين: اليهود بالأصالة والتَّقدُّم والأوَّليَّة، والنَّصارى بالتَّبعيَّة والمحاكاة - مُشْعِرًا بتَهْديدٍ عظيم ووعيد شديد لِبَعْضٍ منهم على سبيل الإبهام؛ بَيَّنَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ذلك البعض المُبْهَم، والآية تَنْظُرُ إلى معنى قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: 82][2].

فـي الإجـمـال إعـمـامٌ يشمل اليهود وغيرهم، وفـي التَّفْصيل كـمالُ الإيضاح لفنون ضلالهم

حاصلُ مَعْنَى قولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: وهُمُ الَّذينَ هادوا، أي: تَهَوَّدُوا؛ يُقال: هادَ، وتَهَوَّدَ؛ إذا دَخَلَ في اليَهُوديَّة، فالذِّكْرُ مُجْمَلٌ أوَّلًا؛ فإنَّها تحتملهم وغيرهم، ومآلهُما واحدٌ، والتَّفْصيل ثانيًا؛ لكمال الإيضاح[3]، فهو تَفْصيلٌ لفنون ضلالهم، فقد رُوعِيَتْ في النَّظْمِ الكريم طريقة التَّفسير بعد الإبهام، والتَّفصيل إثر الإجمال؛ رَوْمًا لزيادة تقريرٍ يقتضيه الحال[4]؛ تحذيرًا مِنْ أَشَدِّ الأعداء على المسلمين خَطَرًا، وأعظمِهِمْ شَرًّا، وهُمُ اليَهُودُ، وتَنْبيهًا على شِدَّةِ خَطَرِهِمْ على الإسلام والمسلمين وعَدَاوَتِهِمْ لرسول رَبِّ العالمين.

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/529، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(2) السُّيوطيّ، حاشية السُّيوطيِّ على البَيْضاويّ: 3/160.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/181.
(4) القاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/139.

النُّكتة في حذف المبتدأ:

في الحذف تحقيرُ اليهودِ ببيان صفاتهم الدَّالَّة عليهم وعلى عداوتهم ومكرهم

يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مستأنفًا، على أنَّ الجارَّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ واقعٌ خَبَرًا لمُبْتدأ محذوفٍ، تقديره: قَوْمٌ مِنَ الذين هادُوا، دلَّ على هذا المُبتدأ جملةُ: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، الواقعة صفة له[1]، وَحَذْفُ المبتدأ في مِثْلِ هَذَا شَائِعٌ في كَلَامِ الْعَرَبِ؛ اجْتِزَاءً بِالصِّفَةِ عَنِ الْمَوْصُوفِ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمُبْتَدَأُ مَوْصُوفًا بِجُمْلَةٍ أَوْ ظَرْفٍ، وَكَانَ بَعْضَ اسْمٍ مَجْرُورٍ بِحَرْفٍ ﴿مِّنَ﴾، وَذَلِكَ الِاسْمُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُبْتَدَأِ، وَمِنْ كَلِمَاتِ الْعَرَبِ الْمَأْثُورَةِ قَوْلُهُمْ: "مِنَّا ظَعَنَ، وَمِنَّا أَقَامَ"، أَيْ: مِنَّا فَرِيقٌ ظَعَنَ، وَمِنَّا فَرِيقٌ أَقَامَ، وَقَدْ دَلَّ ضَمِيرُ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ على أَنَّ هَذَا صَنِيعُ الموصوفين، وعلى أنَّ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّة، فهم فَرِيق مِنْهُمْ[2]، وفيه تحقيرٌ لهم؛ فإنَّ أهل الكتاب لَيْسُوا على صفة واحدة، قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: 113].

شرُّ اليهود مستطيرٌ في كلّ زمان، وأفعالهم على الدّوام متشابهة

علّةُ حذْف المُبتدأ – في وجهٍ – ألَّا تتمحَّضَ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّة، ويقوى ظهورها بيانيَّة، فتتناول جميع المكلَّفين ولا تقف عند مجموعهم، وأثر ذلك على المعنى: الدّلالة على أنَّهم على قلب رجل واحد في الشَّرِّ، فمن لم يباشره منهم؛ تمنَّى أنْ لو كان باشره، وأنَّ الأخلاف ليسوا بأقصر يدًا في ذلك من الأسلاف، وعلى ذلك براهين؛ منها: انسحاب دلالة (الماضي) في آيات الإخبار عنهم على (المضارع) بشقَّيه: الحاضر والمستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: 111]، وانسحاب دلالة (المضارع) في مثل ذلك على ماضيهم كلِّه منذ بعثة النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120].

(1) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/516، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/75.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/74.

ومَنْ أجْلَى ذلك وأوضَحَهُ إخبارُه عن أبشع جرائمهم الماضية المنقضية بالمضارع، كما قال مفيدًا بفعل الكون الاستمرار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21].

خفاء المسمّى مظنّة اتّساع التقدير، واستحضار الحَذَر

فائدة الحذف ألَّا تنحصر دلالته في مُسمّى؛ فتذهب النَّفس في تقديره كلَّ مذهب، فيكون ذلك داعية للحذر والاحتياط منهم جميعًا، وذلك أنأى عن خُلُوص الشَّرِّ، وأنجى من مغبَّته، وأبعد عن مواقعته، وأدنى إلى السَّلامة منه؛ إذ الذِّكر تقييد، والحذف إطلاق.

خفاء المبتدأ لظهور معناه سبيلٌ لتقوية التعلّق بالله تعالى

قوَّة ظهور المبتدأ، وشدَّة وضوحه، وعدم مؤدّاه إلى الإلباس على السَّامع والمُتَلَقِّي سببٌ لخفائه، وعلّةٌ لحذفه. وفي ذلك تقويةٌ لتعلُّقهم بالله؛ عياذًا به، ولياذًا إليه، وتوكُّلًا عليه، في كفايتهم عدوَّهم وحفظهم من غائلته ووقايتهم من خطره وضرره، فلا يخشون غيره، ولا يرهبون سواه؛ ولذلك كلّه كان الحذف أبلغ من الذِّكر.

بلاغة تعليل العداوة على سبيل الاستئناف:

تصوير تعليل العداوة على سبيل الاستئناف بطريق السؤال وجوابه أثبت في النفس وأوقع

علَّل النَّظم الكريم العداوة على سبيل الاستئناف بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ كأنَّ سائلاً سأل: لمَ تَفَرَّدت اليهود بعداوة النَّبيِّ ﷺ؟ فقيل: لأنَّهم حَرَّفوا اسمه وَوَصْفَهُ من التَّوراة، وكَتَموا الحقَّ، وأخذوا على ذلك الرِّشا، وأظهروا على سبيل ذلك المُشْتَبِهَ بقولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾؛ إخفاءً لأمره وحَطًّا لمنزلته[1]، مع علْمِهم أنَّه نبيٌّ آخر الزَّمان، وأن رسالته الأخيرة الباقية إلى أبد الآباد، ودهر الدُّهور، حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها، ولازم ذلك أنَّها كاشفة لزيغ الأمم قبلها، مظهرة انحرافهم عن شرائعهم نصحًا لمن ينظر إليهم في

(1) السُّيوطيّ، حاشية السُّيوطي على البَيْضاويّ: 3/160.

دينهم، كاشفة عن ليِّهم في متابعة أنبيائهم، وغلوِّهم في دينهم غير الحقِّ، ولازم شريعة النَّبيِّ محمَّد - صلّى الله عليه وآله وسلَّم - أنَّها لا تقرُّ غير الحقِّ، كما لا تسكت عن باطل.

إظهارُ جرائمِ الذين هادُوا لاستنكارها، والحَذَر منها

كان الَّذين هادوا قتلة الأنبياء، وهم الأوفى حظًّا ونصيبًا من هدم الرِّسالات باتِّباع الأهواء الشَّيطانيَّة والحيل الإبليسيَّة، وقد أخرج القرآن جرائمهم هذه للعلن؛ لتلقى استنكارًا عامًّا وتنديدًا مُستحقًّا، وحذّر منها، ونفَّر عنها أعمَّ تحذير، وأتمَّ تنفير، فسقط في أيديهم، ورأوْا أنَّهم قد ضلُّوا، وحوصروا بضلالهم، وكعهدهم، فلم يرجعوا، ولم يراجعوا، بل ازدادوا إثمَ الإصرار، وتمنَّى الأخلاف أن: لو كانوا بمكان الأسلاف؛ لفعلوا فعلهم في التّكذيب وقتل النَّبيِّين، ولزادوا في الشَّناعة عليهم.

وليس بعد الكفر ذنْب، ولا بعد قتْل النَّبيِّين ثلبٌ، وأنَّ أدلَّ دليل على تقدُّم الأخلاف على الأسلاف في الكفر والفجور لتكذيبهم أضوأ الرسالات، وأسطع النُّبوَّات، وأظهر المعجزات: رسالة النَّبيِّ محمَّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، ونبوَّته، ومعجزة كتابه، وهم على علم بها، وقد نبَّأهم الله فيما أوحى إلى موسى بها وبأهلها وترك لهم وصاة عنها.

دلالة معنى التَّحريف بَيْنَ الحقيقة والمجاز:

بيانُ جمعهم تحريفَ الألفاظ والمباني والمقاصد والمعاني

التَّحْرِيفُ: الْمَيْلُ بِالشَّيْءِ إِلَى الْحَرْفِ: وَهُوَ جَانِبُ الشَّيْءِ وَحَافَّتُهُ، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي الْمَيْلِ عَنْ سَوَاءِ الْمَعْنَى وَصَرِيحِهِ إِلَى التَّأْوِيلِ الْبَاطِلِ، كَمَا يُقَالُ: تَنَكَّبَ عَنِ الصِّرَاطِ، وَعَنِ الطَّرِيقِ؛ إِذَا أَخْطَأَ الصَّوَابَ، وَصَارَ إِلَى سُوءِ الْفَهْمِ أَوِ التَّضْلِيلِ، فَهُوَ عَلَى هَذَا تَحْرِيفُ مُرَادِ اللَّهِ فِي التَّوْرَاةِ إِلَى تَأْوِيلَاتٍ بَاطِلَةٍ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ فِي تَحْرِيفِ مَعَانِي الْقُرْآنِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يكون التَّحريف مُشْتَقًّا مِنَ الْحَرْفِ: وَهُوَ الْكَلِمَةُ وَالْكِتَابَةُ، فَيَكُونُ مُرَادًا

بِهِ تَغْيِيرُ كَلِمَاتِ التَّوْرَاةِ وَتَبْدِيلُهَا بِكَلِمَاتٍ أُخْرَى؛ لِتُوَافِقَ أَهْوَاءَ أَهْلِ الشَّهَوَاتِ فِي تَأْيِيدِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ فَاسِدِ الْأَعْمَالِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ قَدِ ارْتَكَبَهُ الْيَهُودُ فِي كِتَابِهِمْ، فَعَلَى الِاحْتِمَالِ الْأَوَّلِ: يَكُونُ اسْتِعْمَالُ ﴿عَن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ مَجَازًا، وَلَا مُجَاوَزَةَ وَلَا مَوَاضِعَ، وهي استعارة، والمُراد بها أنَّهم يُنَكِّسون الكلام عن حقائقه، ويُزيلونه عن جهة صوابه؛ حَمْلًا له على أهوائهم، وعَطْفًا على آرائهم، وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ حَقِيقَةً؛ إِذِ التَّحْرِيفُ حِينَئِذٍ نَقْلٌ وَإِزَالَةٌ[1]. وكلُّ ما يدلُّ النَّصُّ عليهم باقترافه واجتراحه بإجرامهم ودناءتهم وكفر قلوبهم ومحادَّتهم اللّٰه ورسله وأنبياءه؛ فهو حقٌّ وصدق، وهم أهل إجرامه، واقتحامه.

توجيه المتشابه اللفظيّ:

جمعَ اليَّهودُ ذكر التَّأويلات الفاسدة من الكتاب، ومن عند أنفسهم

قال تعالى هاهُنا: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وقال في المائدة: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41]، فأمّا ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ فعلى ما فُسِّرَ أنَّ التَّحريف عن مواضعه الَّتي أوجبت حكمة اللّٰه وضعه فيها؛ بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه بالتَّأويلات الباطلة، فَهُمْ يذكرون التَّأويلات الفاسدة لتلك النُّصوص، وليس فيه بيان أنَّهم يخرجون تلك اللَّفظة من الكتاب، وأمَّا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41]؛ فالمعنى: أنَّه كانت له مواضع هو قَمِنٌ بأن يكون فيها، فحين حرَّفوه؛ تركوه كالغريب الَّذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارِّه، فهي دالَّةٌ على أنَّهم جمعوا بين الأمرين، فكانوا يذكرون التَّأويلات الفاسدة، وكانوا يُخْرِجُون اللَّفظ - أيضًا - من الكتاب، فقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾؛ إشارة إلى التَّأويل الباطل، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41]؛ إشارة إلى إخراجه عن الكتاب[2]، فاختيار الأوَّل هُنا، والثَّاني في

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/75.

(2) الزَّمَخْشَريّ، تَفْسيرُ الكَشَّاف: 1/517، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95.

المائدة: مَبْنِيٌّ عَلَى رعاية المناسبة بما قبله وبما بَعْدَهُ[1]، فالَّذي في المائدة أَدَلُّ على ثبوت مَقارِّ الكلم واشتهارها ممَّا هُنا؛ لأنَّ الظَّرف يَدُلُّ على أنَّه بعد ما ثَبَتَ المَوْضِعُ، وتقرَّر؛ حَرَّفوه عَنْه[2].

سرُّ العَطْفِ بعد الوصف:

بيان سُوء أقوال اليهود بعد ذِكْرِ سُوء فِعالِهِمْ

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ عَطْفٌ عَلى ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، فَذَكَرَ سُوء أَقْوَالهم بَعْدَ ذِكْرِ سُوءِ أَفْعَالِهِمْ، وَأَقْوَالهم هِيَ الَّتِي يُوَاجِهُونَ بهَا الرَّسُول ﷺ على حين يستخفون بأفعالهم ومن إظهارها: يَقُولُونَ سَمِعْنَا دَعْوَتَكَ، وَعَصَيْنَاكَ؛ إظهارًا لِتَمَسُّكِهِمْ بِدِينِهِمْ غير الحقِّ، فتًّا في عضده، وتأييسًا له، بالتَّكذيب والإصرار؛ لِيَزُولَ طَمَعُ الرَّسُولِ في إِيمَانِهِمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَرَوْا فِي قَوْلِهِمْ هَذَا أَذًى لِلرَّسُولِ بالغًا به حدَّ ما في أنفسهم، مشبعًا ما فيها من دونيَّة وانحطاط واستخفاف بمشاعر النَّبيِّ المطهَّر المقدَّس الَّذي لم يألُ نصحًا، ولا فتر دعاءً إلى خير عاجل وفضل آجل وتزكية لازمة، فَأَعْقَبُوهُ بِقَوْلِهِمْ لَهُ: وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ؛ إِظْهَارًا لِلتَّأَدُّبِ مَعَهُ[3]؛ خداعًا ومواربة، استخفافًا واستهزاءً، فقد ردُّوا بذلك أسفل سافلين، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: 76].

فقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف عَلَى ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، والجهة الجامعة: خياليّ؛ إذ عند حكاية جسارتهم التَّحريف يخطر بالبال أنَّهم يَتَجاسَرُون على مثل هذا المثالب، كالمُوَاجَهَة بالعصيان والطُّغيان[4].

فائدة استعمال ضمير التَّكلُّم:

تَنْعى الآية على اليهود بعض جرائمهم المُتَوارَثَة، فلم يَكْفِهِمْ تحريف ما في شَرْعِهِمْ - ومنه صفةُ النَّبيِّ ﷺ - بل هم - أيضًا -

(1) حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/182.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/46.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/75، (بتصرف).
(4) ابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/182.

بيان تواطؤهم على العناد واجتماعهم على العصيان

يُجاهرون بالعناد والمعصية بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك[1]، مُعبِّرين بذلك عن تبجُّحهم، وما انطوت عليه دخائلهم بالضَّمير (نا) الدَّالِّ على المتكلِّمين، مُوهِمين بذلك أنَّهم يُريدون أنَّ ذلك حكاية ما وقع لأَسلافهم قديمًا، وإنَّما يُريدون أنَّهم هم سمعوا ما يقول، وخالفوه عمدًا؛ لِيَظُنَّ من سَمِعَ ذلك أنَّهم على بصيرة في المخالفة بسبب ما عندهم من العلم الرَّبَّانيِّ؛ لِيُوَرِّثَهُ ذلك شكًّا في أمره وحَيْرَةً في شأنه[2].

وكان ذلك آية شاهدة على جُرمهم الجَماعيِّ، وتَحامي بعضهم ببعض حين يَسْخَرُون بالدِّين وبالرَّسول ﷺ لهذا استحقُّوا لعنة الله ﷻ على ما انطوت عليه ضمائرهم، وأعلنت عنه ألسنَتُهم من العدول عن الخير إلى الشَّرِّ، وعن الإيمان إلى الكُفْرِ، والذَّمِّ، وإرادة السُّوء أقرب احتمالاً باعتبار معهودهم، والمدح وإرادة الثَّناء أقرب منالاً باعتبار معهوده هو عليه أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام.

بديع التَّوجيه في قوله تعالى: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا﴾:

من سوء أدب اليهود إظهارُ التَّوقير في الخطاب والاحترام، وإضمارُ الشَّتيمة، والإهانة نيّةً

الموضع الأوَّل من التَّوجيه[3] هو قولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وهو حال من المخاطب، أي: اسمع، وأنت غير مُسْمَعٍ، وهُوَ قولٌ ذو وجهين: يَحْتَمِلُ الذَّمَّ، أي: اسمع مِنَّا مَدْعوًّا عليك بلا سمعت؛ لأنَّه لو أجيبتْ دعوتهم عليه؛ لم يَسْمَعْ، فكان أَصَمَّ، أو اسمع غير مُجاب إلى ما تدعو إليه، ومعناه: غَيْرَ مُسْمَعٍ جوابًا، فكأنَّك لم تسمع شيئًا،

(1) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/263.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/263.

(3) هو إيراد الكلام محتملاً وجهين مُتضادَّين، كالمدح والهجاء أو الذَّمِّ والثَّناء، ولا بدَّ أن يكون هذا الاحتمال على حدٍّ سواء، فلو كان أحد الوجهين متبادرًا إلى الذِّهن، لم يكن توجيهًا، ينظر: السَّكَّاكيّ، مِفْتاحُ العلوم، ص: 202، والقَزوينيّ، الإيضاح، ص: 328، وهو أسلوبٌ يجعل صاحبه في مأمن من المؤاخذة والعقاب، لأنَّه يقول كلامًا يحتمل وجهين، فإذا شاء، مال به إلى الذَّمّ، فينال من مذمومه، وإذا شاء، مال به إلى المدح، فينجو من المؤاخذة، ويبرأ من الإثم، ينظر: بسيوني، علم البديع: 2/63.

أو اسمع غير مسمعٍ كلامًا ترضاه، فسمعك عنه نَابٍ[1]، أو اسمع غير مُسْمَعٍ مكروهًا؛ من باب قولهم: أسمعه فلان؛ إذا سبَّه، وإنَّما قالوا ذلك نفاقًا[2].

فقد كانوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ عِنْدَ مُرَاجَعَتِهِ فِي أَمْرِ الْإِسْلَامِ: اسْمَعْ مِنَّا، وَيُعَقِّبُونَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ، يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا الظَّاهِرَ الْمُتَبَادِرَ مِنْ قَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ، أَيْ: غَيْرَ مَأْمُورٍ بِأَنْ تَسْمَعَ، فِي مَعْنَى قَوْلِ الْعَرَبِ: (افْعَلْ غَيْرَ مَأْمُورٍ)، أو غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكْرُوهًا، وَالْحَاصِلُ: أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَانَتْ مَعْرُوفَةَ الْإِطْلَاقِ بَيْنَ الْعَرَبِ فِي مَعْنَى: الْكَرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ، إِطْلَاقًا مُتَعَارَفًا، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوهَا لِلرَّسُولِ؛ أَرَادُوا بِهَا مَعْنًى آخَرَ، انْتَحَلُوهُ لَهَا مِنْ شَيْءٍ يَسْمَحُ بِهِ تَرْكِيبُهَا الْوَضْعِيُّ، أَيْ: أَلَّا يَسْمَعَ صَوْتًا من متكلِّم؛ لِأن يَصِيرَ أَصَمَّ، أَوِ الَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾، فَأَزَالَ لَهُمْ كَلِمَةَ: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾[3].

والموضع الثَّاني: قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾، وهو يحتمل: راعنَا؛ لنكلِّمك، أي: ارقبنا، وانتظرنا، نكلِّمك، أو نفهم كلامك[4]، فأَتَوْا بِلَفْظٍ: ظَاهِرُهُ طَلَبُ الْمُرَاعَاةِ، أَيِ: الرِّفْقِ، وَالْمُرَاعَاةُ مُفَاعَلَةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْمُبَالَغَةِ فِي الرَّعْيِ عَلَى وَجْهِ الكِنَايَةِ الشَّائِعَةِ الَّتِي سَاوَتِ الْأَصْلَ؛ لِأَنَّ الرَّعْيَ مِنْ لَوَازِمِهِ الرِّفْقُ بِالْمَرْعِيِّ، وَطَلَبُ الْخِصْبِ لَهُ، وَدَفْعُ الْعَادِيَةِ عَنْهُ، وَهُمْ يُرِيدُونَ بِـ ﴿وَرَٰعِنَا﴾ كَلِمَةً فِي الْعِبْرَانِيَّةِ، تَدُلُّ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الرُّعُونَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ[5]، وفي عملهم هذا عَمَدُوا إلى إيصال الأذى إلى النبيّ ﷺ بطريقة خفيَّة، لا يُؤاخذون عليها،

في عَمَلِهِم عَمْدٌ إلى إيذاء الرَّسول ﷺ بطريقةٍ خفيَّة، لا يُؤاخذون عليها

(1) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/271.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95، والبَيْضاويّ، أَنوارُ التَّنْزيل: 2/77.
(3) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/529، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/76.
(4) البَيْضاويّ، أَنوارُ التَّنْزيل: 2/77.
(5) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/271، وابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/183 - 184، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/76.

ولكنَّ الله كشَفَهُم، وفضحَ أمرَهُم ببيانِ تحْريفهم لِلْكَلِم، ومن المعلوم أنَّ تحريف الشَّيء: إمالتُه، كتحريف القلم، وتحريف الكلام: أن تحمله على حرف من الاحتمال، فيمكن حمله على الوجهين[1]، وهو ظاهر في قولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، أمَّا قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾؛ فالغالب فيه هو اللَّيُّ؛ لأنَّهم يُخْرجونَ الكلمة بطريقة يَلْوونَ فيها ألسنتهم، حتَّى تُعَبِّرَ عمَّا أرادوا، تشبيهًا بكلمة عبرانية كانوا يتسابون بها، وهي: (راعينا)، هكذا بالياء؛ فقد كانوا يُكلِّمون الرَّسول ﷺ بكلام مُحْتَمَلٍ، يَنْوُون به الشَّتيمة والإهانة، ويُظهرون التَّوقير والاحترام والإكرام[2].

بلاغة التجنيس في الآية:

في قوله ﴿وَٱسْمَعْ﴾ و﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ جناسٌ مغايرٌ[3] يُبْرِزُ قَصْدَهُمْ مِنْ إِيرَادِ كَلَامٍ ذِي وَجْهَيْنِ - يحتمل المدح والتَّعظيم، ويحتمل الإهانة والشَّتم - وهو أَنْ يُرْضُوا الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَيُرْضُوا أَنْفُسَهُمْ بِسُوءِ نِيَّتِهِمْ مَعَ الرَّسُول ﷺ وَيُرْضُوا قَوْمَهُمْ، فَلَا يَجِدُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةً[4].

في التجنيس قصدٌ إلى إرضاء الجميع بسوء نيّتهم

دلالة التَّعريض بالقول المحتمل بعد التَّصريح بالكفر والعصيان:

جاؤوا بالقول المحتمل في الوجهين بعد ما صَرَّحوا، وقالوا: سمعنا، وعصينا؛ لأنَّ جميع الكفرة كانوا يُواجهونه ﷺ بالكفر والعصيان، ولا يواجهونه بالسَّبِّ ودعاء السُّوء، ويجوز أنْ يقولوه فيما بينهم، ويجوز ألَّا ينطقوا بذلك، ولكنَّهم لمَّا لم يؤمنوا به؛ جعلوا كأنَّهم نطقوا به[5]، فكان النَّبيُّ ﷺ إذا أمرهم بشيء؛ قالوا في الظَّاهر: سمعنا،

في التّعريض تَعْدادُ صفاتهم الذَّميمة من قول وفعل، ووصفُ عصيانهم، واحتيالهم

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (حرف)، والسُّيوطيّ، حاشية السُّيوطيّ على البَيْضاويّ: 3/161، وابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/182 - 183.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/293.

(3) أَبو حَيّان، البحر المحيط: 3/665.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/76.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/96.

وقالوا في أنفسهم: وعصينا[1]. والمقصود على هذا عَدُّ صفاتهم الذَّميمة، لا مجرَّد التَّحريف والاحتيال، فكأنَّه قيل: يحرِّفون كتابهم، ويجاهرون بإنكار نُبوَّة محمَّد ﷺ قالًا وحالًا، وعِصيانهم بعد سماع ما بَلغهم وتحقُّقه لديهم، ويحتالون في سبِّه[2] ﷺ.

سِرُّ إيثار لفظ (اللَّيِّ) دون غيره:

بيان اختصاص اليهود في خطابهم لغيرهم بما ظاهره التَّوقير وباطنه التَّحقير

(اللَّيُّ) في قوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أَصْلُهُ: الِانْعِطَافُ وَالِانْثِنَاءُ والفَتْلُ، وَمِنْهُ ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: 153]، وَهُوَ يَحْتَمِلُ الْحَقِيقَةَ فِي كِلْتَا الْكَلِمَتَيْنِ: اللَّيِّ، وَالْأَلْسِنَةِ، أَيْ: إِنَّهُمْ يُثْنُونَ أَلْسِنَتَهُمْ صَرْفًا لها عن مخارج الحروف الَّتي تَحِقُّ لها في العربيَّة إلى ما يفعله العبرانيُّون من تَغْليظِ بعض الحروف، وشَوْبِ بَعْضِها بِغَيْرِهِ[3] بِأَنْ يُشْبِعُوا حَرَكَاتٍ، أَوْ يَقْصُرُوا مُشْبَعَاتٍ، أَوْ يُرَقِّقُوا مُفَخَّمًا؛ لِيُعْطِيَ اللَّفْظُ فِي السَّمْعِ صُورَةً تُشْبِهُ صُورَةَ كَلِمَةٍ أُخْرَى، فَإِنَّهُ قَدْ تَخْرُجُ كَلِمَةٌ مِنْ زِنَةٍ إِلَى زِنَةٍ، وَمِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ بِمِثْلِ هَذَا[4].

في لفظي (اللَّيِّ)، و(الأَلْسِنَةِ) مجازٌ يرسّخُ ما في قلوبهم من الابتعاد عن الخير، ونقيض الحقّ

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِلَفْظِ (اللَّيِّ) مجازه، وبلفظ (الْأَلْسِنَةِ) مَجَازُهُ: فَاللَّيُّ، بِمَعْنَى: تَغْيِيرِ الْكَلِمَةِ، وَالْأَلْسِنَةُ مَجَازٌ عَلَى الْكَلَامِ، أَيْ: يَأْتُونَ فِي كَلَامِهِمْ بِمَا هُوَ غَيْرُ مُتَمَحِّضٍ لِمَعْنَى الْخَيْرِ، فهم يلوونها عن الحقِّ، ويميلونها إلى ما في قلوبهم[5].

فقولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾، ويريدون به الشَّتم، فذاك هو اللَّيُّ، وكذلك قولهم: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وأرادوا به: لا سمعت، فهذا هو من اللَّيِّ[6]، فاستعمل لفظ (اللَّيِّ) في معنى صرف الإنسان عمَّا يريده، واستعير

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/47.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/263.
(4) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/76.
(5) الشَّوكانّي، فتح القدير: 1/475، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/76.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/96.

في صرفِ الكلام من وجه إلى وجه[1]؛ ولهذا انتصب: ﴿لَيًّا﴾ على المفعول المطلق، لـ ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لأنَّ اللَّيَّ كيفيَّة من كيفيَّات القول[2].

مصداقُ وصفِ الحقّ تعالى في اليهود ثبوت طباع السّوء فيهم في كلّ زمان

قال ابن عطيَّة: "وهذا اللَّيُّ باللِّسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتَّى الآن في بني إسرائيل، ويُحفظ منه في عصرنا أمثلة"[3].

وعقّب أبو حيَّان، وهو يحكي عن يهود الأندلس: "وقد شاهدناهم، وشاهدنا يهود ديار مصر على هذه الطَّريقة، وكأنَّهم يُربُّون أولادهم الصِّغار على ذلك، ويُحَفِّظونهم ما يُخاطِبُونَ به المسلمين مِمَّا ظاهره التَّوقير، ويريدون به التَّحقير"[4].

فائدة الإطناب في قوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾:

بيان اللَّيِّ المقصود وأنّه يكون باللِّسان

(اللَّيُّ) في الآية يَخُصُّ اللِّسان؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ﴾؛ إذ به عُلِمَ أنَّ اللَّيَّ المقصود هو إخراج الكلام على طريقةٍ مقصودة؛ لإيقاع الشُّبهة الَّتي تُرْضي نُفوسهم المريضة، وهذا لا يكون إلَّا باللِّسان، فهو من قبيل التَّتميم[5].

دلالة تعدية (اللَّي) بالباء:

من غيّهم الاستعانةُ بالوهوبِ على المعاصي والانحرافات

معنى حَرْف الباء في ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ الاستعانةُ؛ إذ استعملوا هذه الجارحَةَ الَّتي وهبهم الله إيَّاها في معصيته - سبحانه - فَتْلًا بها وصَرْفًا للكلام عن نهجه إلى نسبة السَّبِّ[6].

وجه الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾:

قوله: ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾، أي: قدحًا فيه بالاستهزاء والسُّخريَّة[7]،

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1259.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/76.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 2/62.
(4) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/275، بل هو موجود إلى عصرنا هذا.
(5) التَّتميم: الإتيان بفضلة مفيدة في كلام لا يوهم خلاف المراد، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: 177]، فقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177] تتميم، لأنَّ المعنى تَمَّ قبلها.
(6) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/184، وخَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّة: 1/180.
(7) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/47.

في الاستعارة بيانٌ لشِدَّة عداوة اليهود للنَّبيِّ ﷺ

وقد عبَّر النَّظم الكريم عن ذلك بالطَّعن بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لأنَّ الطَّعن هنا مجازٌ عن العيب؛ لأنَّه حقيقة في الإصابة بالرُّمح أو العُودِ وشِبْهِهِ[1]، وَطَعْنُهُمْ في الدِّين من خلال طعنهم في النَّبيِّ ﷺ بإِنْكَار نُبُوَّتِه، وَتَغْيير نَعْتِه، أَوْ عَيْب أَحْكَام شَرِيعَتِه، أَوْ تَجْهِيله[2]، وطعنهم - أيضًا - بقولهم لأصحابهم: إنَّما نَشْتِمُهُ، ولا يعرف، ولو كان نبيًّا؛ لَعَرَفَ ذلك، فأطلعه الله تعالى على خبيث ضمائرهم، وما في قُلوبهم من العداوة والبغضاء[3]، فالطَّعن في الدِّين تحقيره والهُزء به، وهو مُسْتعار من الطَّعن في الشَّيء بمعنى: الضَّرب له.

دلالة تنوّع إعراب المصدر:

ركِّب طبعُ اليهود على الانحراف، والمكر، والكذب وسوء القصد وخبث المرام

انتصب ﴿وَطَعْنَا فِي ٱلدِّينِ﴾ مفعولًا لأجله، فيكون مع المفعول المطلق قبله ﴿لَيًّا﴾، من عطف بعض المفاعيل على بعض، ولا ضيْر فيه، ولك أن تجعلهما معًا: مفعولين مطلقين، أو مفعولَيْن لأجلهما، أو حالَيْن من فاعل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بتقديرهما: (لاوين)، و(طاعنين)، وعلى الأوّل والثّاني ابن عاشور[4]، وبالثّاني والثّالث صرَّح أبو السُّعود[5]، وتابعه عليه الآلوسيُّ[6] صريحًا في المفعول له والحال، محتملًا للأوّل المفعول المطلق.

واعتبارُهما مطلقيْن ينبئ عن طبيعة الَّذين هادوا، وما ركِّب في طبعهم من انحراف وعوج، والتواء ومكر، وخديعة وكذب، وغِشٍّ واستهزاء، واعتبارهما مفعولَيْن لأجله ينبئ عن سوء القصد وفساد الغرض وخبث المرام، ونيَّة الشّرِّ والانطواء على الكفر المبيَّت على

(1) الهَرَريّ، حَدائِق الرَّوْح والرَّيْحان: 11/156.
(2) أبو حَيّان، البحر المحيط: 3/663.
(3) الهَرَريّ، حَدائِق الرَّوْح والرَّيْحان: 6/124.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/76.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/184.
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 3/47.

التَّمرُّد والمُشاقَّة والعصيان، أمَّا إعرابهما حالين؛ فدالٌّ على جمعهما بين السُّوْءَيْن الأصيل والدَّخيل، واللّازم والعارض، والمتجذِّر والطَّارئ، وفي الآية وصف كاشف لبعض ما مردوا عليه من فضول الكلام الَّذي يظهر من العيوب ما بطن، ويحرِّك من العدوِّ ما سكن، وتصنُّعهم لا يُخْفي شيئًا من طبعهم، فإنَّ الطَّبع يغلب التَّطبُّع: ومن تخلَّق بالخلق الجميل، وله خلق سوء أصيل؛ فتخلُّقه – لا محالة – زائل، وهو إلى خلقه الأوّل آيل، كطلي الذَّهب على النُّحاس، ينسحق، وتظهر صفرته للنَّاس.

في الحاليّة ظهورٌ لهيئة القول في أنفس قائليه، وأثـــره على متكلِّميه

ومن إعجاز القرآن ترتيبه الحالين هذا التَّرتيب المحكم: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، أي: (لاوين ألسنتهم)، فهذا حال القول في أنفس قائليه، وأثره على متكلِّميه يظهر عليهم العِوَج، فتقوم عليهم الحُجَج: أنّ جهة القول غير قويمة، ومسالكها غير مستقيمة، وهذا الحال الأوّل الأسبق، والحكم للسّابق، ثم جال الحال الثّاني الأعجب: يبيّن أثر القول في نفسه: ﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: (طاعنين في الدِّين)؛ إذ هو بمجرَّد صدوره معدود كذلك، وليس هو إلَّا ذلك.

علّة تسمية مخاتلة اليهود للنبي طعنًا في الدّين:

الائتساء بالنبيّ ﷺ هو التقرُّب إلى الـلـه، وطـاعـتـه هي الهدى، وبلاغه هو الحجَّة

إنَّ الله سمّى مخاتلة اليهود لنبيِّه: طعنًا في الدِّين، فالدِّين به هو، ولو لم يُبْعث هو ﷺ بنفسه بهذه الرِّسالة الخاتمة للزم أن يتقاسمَها أنبياء عديدون بعدد قرى الدُّنيا؛ فسَدَّ وحده مسَدَّهم، وأدَّى مؤدَّاهم، وأغنى عنهم، وفي هذا يقول الله تعالى له: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ [الفرقان: 51].

وجعل الله سيرته وسنَّته مبيِّنة لمراد الله من شريعته ومقصوده من خطابه، فالائتساء به هو التقرُّب إلى الله، وطاعته هي الهدى، واتِّباعه هو الدِّين. وجعل بلاغه هو الحجَّة، وتكفّل له بحفظ حياته حتّى يُبَلِّغ رسالته، وزكّى أفعال نبيِّه، فنسبها إليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، وزكّى نطقه، فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3، 4]، وزكّى رأيه، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النّساء: 105]، وجعل أذيَّته أذيَّة له، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب: 57].

سِرُّ الإتيان بالقول الجاري مُجرى المثل:

بيان الحال اللّائقة بمن عَرَفَ الحَقَّ

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أَيْ: لَوْ قَالُوا مَا هُوَ قَبُولٌ لِلإِسْلَامِ؛ لَكَانَ خيرًا، وَقَوله: سَمِعْنا، وَأَطَعْنا يُشْبِهُ أَنَّهُ مِمَّا جَرَى مجْرَى الْمَثَلِ بِقَوْلِ مَنْ أُمِرَ بِشَيْءٍ، وَامْتَثَلَهُ "سَمْعٌ وَطَاعَةٌ"، أَيْ: شَأْنِي سَمْعٌ وَطَاعَةٌ، وَهُوَ مِمَّا الْتُزِمَ فِيهِ حَذْفُ الْمُبْتَدَأ؛ لِأَنَّهُ جَرَى مُجْرَى الْمَثَلِ، كقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[1].

وفي تَقديم حال القول بالنِّسبة إليهم على حاله في نفسه إيماء إلى أنَّ هِمَم اليهود - لعنهم الله تعالى - طَمَّاحَةٌ إلى ما ينفعهم[2].

بديع المقابلة بَيْنَ الألفاظ:

بيان وجه المفارقة بين حال اليهود وحال من عرف الحقَّ واتَّبعه

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ عندما سَمِعوا شيئًا من أوامرِ الله تعالى ونواهيه؛ ﴿قَالُواْ﴾ بلسان المقال، كما هو الظَّاهر أو به، وبلسان الحال، كما قيل: ﴿سَمِعْنَا﴾ سماع قبول مكان قولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾: المُراد به سماع الرَّدِّ، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ مكان قولهم: ﴿وَعَصَيْنَا﴾، ﴿وَٱسْمَعْ﴾ بَدَلَ قولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ بدل قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ فالطِّباق الظَّاهر:[3]

(1) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/77.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/47.
(3) أَبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/276.

بَيْنَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ و﴿وَأَطَعْنَا﴾، والطِّباقُ المُغاير: بين ﴿مُسْمَعٍ﴾ و﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وما تُوحيه معاني ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ و﴿وَرَٰعِنَا﴾ من التَّضادِّ؛ شَكَّلَ صورةَ مُقابَلَةٍ بَديعة، وأعطى وَجْهَ المُفارَقَةِ بَيْنَ الحال الأُولى لليهود، وما ذُكِرَ من وَصْفِ مَكْرِهِمْ وغلِّ قُلوبهم وحَسَدِهِمْ، وبين ما يجب أن يكون عليه مَنْ عَرَفَ الحقَّ، وظَهرت له دلائله من السَّمع والطَّاعة والانقياد.

دلالة اسم التَّفضيل ﴿خَيْرًا﴾:

قَوْلُنا: "هذا خيرٌ من ذلك"؛ يقتضي أن يكون في كلٍّ واحد منهما خيرٌ حتَّى يَصِحَّ تفضيل أَحَدِهِمَا على الآخر؛ لأنَّ ﴿خَيْرًا﴾ في الأصل: أَفْعَلُ تفضيل، فكيف قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ بعد ما سبق من قولهم في أوَّل الآية؟

إثبات الوصف مجرَّدًا عن التَّفضيل لفقدان الفضل في القول المعدول عنه، المؤاخذ عليه

فالجواب: أنَّ المُراد بالخير هُنا: هو الخير الَّذي هو ضدُّ الشَّرِّ، لا الَّذي هو أَفْعَلُ التَّفْضيلِ، كما يُقال: في فلان خَيْرٌ، فالضَّمير في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، يرجع إلى ﴿أَنَّهُمْ قَالُواْ﴾؛ لأنَّ المعنى، ولو ثبت قولهم: سَمِعنا وأطعنا؛ لكان قولهم ذلك خيرًا لهم - في الدُّنيا: بحقن دمائهم وعُلُوِّ رُتْبَتِهِمْ بإحاطة الكُتُبِ السَّماويَّة، وفي الآخرة: بِضِعْفِ الثَّواب[1] - وَأَقْوَمَ وأَعْدَلَ وأَسَدَّ[2] ممَّا طَعَنُوا، وقَتَلُوا، ولا يخفى موقع ﴿وَأَقْوَمَ﴾ في مقابلة (اللَّيِّ)[3].

فالمراد به إثبات الوصف مجرَّدًا عن التَّفضيل لفقدان الفضل في القول المعدول عنه، المؤاخذ عليه.

بيان أثر اللَّعنة الَّتي حاقت بهم بِسَبَبِ تَأَصُّل نُفوسهم في الشَّرِّ

سِرُّ الاستدراك بعد بيان الأعدل والأقوم من الأقوال والأفعال:

الاِسْتِدْرَاكُ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ناشئ عَنْ

(1) القاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/142.
(2) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/518.
(3) الخَفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على البَيضاويّ: 3/143.

قَوْلِهِ: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أَيْ: وَلَكِنْ أَثَرُ اللَّعْنَةِ حَاقَ بِهِمْ، فَحُرِمُوا مَا هُوَ خَيْرٌ، فَلَا تَرْشَحُ نُفُوسُهُمْ إِلَّا بِآثَارِ مَا هُوَ كَمِينٌ فِيهَا من فعلٍ سيِّئٍ وَقَوْلٍ بَذَاءٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَ أَنْفُسِهِمْ عَنْ ذَلِكَ[1].

دلالة الاستثناء بعد نفي الإيمان:

مَعْنَى ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا، فَهُوَ مِنْ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ، وَأُطْلِقَ الْقِلَّةُ عَلَى الْعَدَمِ، وَفُسِّرَ بِهِ قَوْلُ تَأَبَّطَ شَرًّا:

قَلِيلُ التَّشَكِّي لِلْمُهِمِّ يُصِيبُهُ *** كَثِيرُ الْهَوَى شَتَّى النَّوَى وَالْمَسَالِكِ[2]

وذا يُشْبِهُ قَوْلَهُمْ: فُلَانٌ قَلِيلُ الْحَيَاءِ، فلَيْسَ مُرَادُهُمْ أَنَّ هُنَاكَ حَيَاءً؛ وَإِنْ قَلَّ، وَمِنْهُ - أيضًا - قَوْلُ العَرَبِ: قَلَّ رَجُلٌ يَقُولُ ذَلِكَ، يُرِيدُونَ أَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ، ومثله قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: 62]، وَالْمَعْنَى: نَفْيُ التَّذْكِيرِ، وَالْقِلَّةُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى النَّفْيِ[3]، وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلَتِ العَرَبُ الْقِلَّةَ عِوَضًا عَنِ النَّفْيِ؛ لِضَرْبٍ مِنَ الاحْتِرَازِ وَالاقْتِصَادِ، فَكَأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يَخْشَى أَنْ يُتَلَقَّى عُمُومُ نَفْيِهِ بِالْإِنْكَارِ، فَيَتَنَازَلُ عَنْهُ إِلَى إِثْبَاتِ قَلِيلٍ، وَهُوَ يُرِيد النَّفْيَ[4].

تأكيد النفي بما يشبهُ ضدَّهُ؛ فالقلّة مستعملة في معنى النّفي

وقد يكون القليل صفة للقوم، فهو المبتدأ المقدَّر مؤخَّرًا المحذوف المتعلَّق به ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، والمعنى: فلا يؤمن منهم إلَّا أقوام قليلون[5]، ووجه آخر: أن يكون استثناء من ضمير المفعول في ﴿لَّعَنَهُمُ﴾، أي: إلَّا قليلًا لم يلعنهم، فآمنوا، كعبد الله ابن سلام وكعب الأحبار وغيرهما، أو استثناء من الفاعل في: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[6]، وضعَّف أنَّ

(1) ابْنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/77.
(2) تأبَّط شرًّا، ديوان تأبَّط شرًّا وأخباره، ص: 150.
(3) الزَّمَخْشَريّ، الكَشَّاف: 3/377.
(4) ابْنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/77.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/96.
(6) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/275.

الوجه حينئذٍ كان الرّفع على البدل؛ لأنَّه من كلام غير موجَب مع أنَّ القُرَّاء قد اتَّفقوا على تلقّي قراءاتهم بالنَّصب هكذا: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ على حين تلقَّوا ما توجيهه كالمقول هنا بالرّفع، وهو قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النّساء: 66]، يضاف إلى تبعيده معنويًّا: أنَّ القول به – رغم مخالفته المُتَلَقّي – يقتضي وقوع إيمان من لعنه الله تعالى، وخذله، فلا ينبغي له إلَّا الاستبعاد والنَّفي في كلِّ نادٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَوْلى والوَلِيّ والنَّصير:

الوِلَايَةُ تَكونُ بِإِخْلاصِ المَوَدَّةِ، والنَّصْرُ يَكونُ بِالمَعونَةِ والتَّقْوِيَةِ

المَوْلى – في حَقِّ اللهِ – المُعينُ الَّذي تَرْكَنُ إِلَيْه، وتَعْتَمِدُ عَلَيْه، وتَحْتَمي بِهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ[1]. والوَلِيُّ في أَسْماءِ اللهِ تَعالى خَاصٌّ بِالمُؤْمنينَ، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: 257]، أَمَّا المَوْلى؛ فَيُطْلَقُ على المَعْنى الخَاصِّ بِالمُؤْمنينَ، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [مُحَمَّد: 11]، ويُطْلَقُ – أَيْضًا – بِالمَعْنى العَامِّ مِثْلَ قَوْلِه تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يُونُس: 30]. ولا تَعارُضَ بَيْنَ الآيَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ؛ إِذْ معنى كَوْنِه مَولى الكافِرينَ، أَيْ: مَالِكُهُمْ والمُتَصَرِّفُ فيهم بِما شَاءَ، ومَعْنى كَوْنِه مَوْلى المُؤْمنينَ دونَ الكَافِرينَ، أَيْ: وِلايَة مَحبَّةٍ وتَوْفيقٍ[2].

أَمَّا النَّصيرُ؛ فَهُوَ على وَزْنِ (فَعيلٍ)، والمَقْصودُ مِنْهُ اسْمُ الفاعِلِ (ناصِرٌ)، والنَّاصِرُ: هُوَ الَّذي يُعينُ غَيْرَهُ، ويُقَوّيه[3]، وقَدْ نَصَرَهُ يَنْصُرُهُ نَصْرًا؛ إِذا أَعانَهُ على عَدُوِّه وشَدَّ مِنْهُ[4]، والنَّصيرُ في حَقِّ اللهِ تَعالى: المَوْثوقُ مِنْهُ بِأَلَّا يُسْلِمَ وَلِيَّهُ، ولَا يَخْذُلَهُ، بَلْ يَنْصُرَهُ،

(1) العسكريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 284.
(2) الشِّنْقيطي، دَفْعُ إيهامِ الاضْطِراب: 01/89.
(3) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 189.
(4) ابْنُ الأَثير، النِّهايَة: (نَصَرَ).

ويُعينَهُ، ويُسَدِّدَهُ، وقَدْ سَمَّى اللهُ تَبارَكَ وتَعالى نَفْسَهُ باسْمِ النَّصيرِ، فَقالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجّ: 78]، واللهُ ﷻ هُوَ النَّصيرُ الَّذي يَنْصُرُ عِبادَهُ المُؤْمِنينَ، ويُعينُهُمْ، قال تَعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرُّومُ: 47][1].

السَّماع والاستماع:

الاستماع لِمَا كَانَ بِقَصْدٍ، ولَا يَكُونُ إلَّا بِالْإِصْغَاءِ، والسَّماع يَكُونُ بِقَصْدٍ وَبِدُونِهِ

السَّماع - وكذا السَّمع - مُطْلَقُ إدراك الحروف والأصوات، والاستماع: طَلَبُ السَّمع بالإصغاء بالأذن، أي: تَقَصُّدُ السَّماع[2].

والسَّمع ثلاث درجات: إحساس بالصَّوت دون فهم: كسماع الدَّوابِّ السَّارحة؛ إذا دعاها راعيها إلى ما يُرشدها، فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تَفهم ما يقول[3]، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم: كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: 75]، وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم والاقتناع والإيمان والطَّاعة: وهي أعلى درجات السَّمع التي تُمنَحُ للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿*إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]، وقال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: 81].

والاستماع يكون على درجتين: الأولى: استماعُ انتفاع، وانقياد، وطاعة، وهو استماع المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمر: 18]، والمقصود منه هُنا: فهم المَعْنَى مع القبول والانتفاع،

(1) القحطانيّ، شَرْحُ أَسْماءِ اللهِ الحُسْنى، 222 - 223، بِتَصَرُّفٍ يَسيرٍ.
(2) الفَيُّوميّ، المصباح المنير: 1/289، والعَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 89، والهَرَريّ، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 20/187.
(3) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 1/238، والثَّعالِبيّ، الجَواهِرُ الحِسان: 1/355.

وهناك استماع لا ينتج عنه انتفاع ولا قبول ولا انقياد، وهو استماع الكافر والمُنافق، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ [محمَّد: 16]، فَهُمْ في هذه المنزلة كالبهائم في عدم الانتفاع؛ وإن كان الفَرْقُ بَيْنَهُمَا: بأنَّ مُسمَّى الاستماع موجود في الكفرة دون البهائم[1]، وذلكم المستمع يريد الضِّدَّ، ويقصد الصَّدَّ.

(1) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 3/114، وابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ الحَنَفيِّ على البَيْضاويّ: 9/472.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»